

تأويل الخطاب الإباضي بين التزام النص وحجية إعمال الرأي - مقارنة في المقولات الكلامية -

عبد الرحيم عزاب

جامعة سطيف 2

ملخص:

تَسَعَى هذه الدراسة إلى التعريف بالمنهجية النظرية الاستدلالية التي استخدمها المذهب الإباضي من خلال المباحث المتعلقة بأصول العقيدة الإسلامية وأركانها المعروضة في أجلّ مضامها العلمية.

تحت عنوان: تأويل الخطاب الإباضي بين التزام النص وحجية إعمال الرأي - مقارنة في المقولات الكلامية - وقد قسّمت هذه الدراسة إلى مستويات ثلاثة، هي: المفهوم الإباضي للإباضية من حيث الاشتقاق اللغوي والمسرد التاريخي. مراحل التأسيس والشخصيات المرجعية. مدخل إلى العقائد الدينية والفكرية للإباضية في ضوء نظريات علم الكلام. وقد اقتضت الدراسة الاتكاء على النظرة النقدية وفق المنهج التحليلي التفسيري.

Résumé :

Le thème de cette étude concerne la définition de la méthode théorique de l'inférence pratiquée par la doctrine IBADITE à travers les articles relatifs aux origines dogmatiques de l'islam.

Son intitulé est la notion herméneutique du discours IBADITE entre l'obligation du texte et l'inférence opiniâtre - Approche dans les catégories Monothéismes.

Cette étude se subdivise en trois figures :

La Doctrine de l'IBADITE entre la dérivation linguistique et la Narrativité historique.

Les stades de Fondation et ses personnages référentiels.

Introduction aux dogmes religieux et conceptuels selon la lumière Monothéisme. Cette étude est basée sur une vision critique selon la méthode Analytique descriptive.

المقدمة

موضوع البحث ودوافعه:

يُعدُّ البحث في تاريخ التراث الإسلامي، وخاصة في الجانب الكلامي المتعلق بالعقائد وما يكون تبعاً لها أمراً ذا بالٍ، إذ ليس من الحق الاعتقاد بأن أقلام الباحثين وعقولهم قد تحقق لها الكشف والإسفار عن جميع حقائقه سواء فيما يتعلق بمادته العلمية أو بالمناهج المستعملة والمطبقة فيه، ولا سيما فيما انشعبت إليه آراء ومذاهب أكابر المفكرين من علماء الإسلام الذين تركوا رصيда علميا يمثل مجرا زاخرا يَمُورُ بمختلف النظريات والأحكام المتعلقة بشتى فروع المعرفة في هاتيك الحقب من التاريخ، وهذا ما يحض الباحث العلمي ويدفعه إلى التفتيش عنه، خصوصا في القرون الثلاثة المحجرية المتوالية وما جاورها حتى القرن السادس، وهي الفترة الذهبية الأثيرة والمتسمة بالفردة والتميز والتي تحققت فيها الازدهار والألق العلمي اللامع للمسلمين ما لم يتحقق في سواها من القرون، فكانت الملكات العلمية نضيجة راسخة والإنتاج الفكري ثرا غزيراً، وهو ما عبّرت عنه خير تعبير صراعات المذاهب الفكرية واحتكاكاتهما وما خلّفته نزعاتهما من أفانين الجدل في مختلف شؤون الحياة ومناهجها الدينية والعقلية والسياسية.

وما حوت من تخالفات فكرية بين الفرق التي حفلت بها تلك الفترة - القرن الرابع المحجري تحديداً - وكانت بما ملأى خصوصاً بين كبريات الفرق السياسية والدينية التي جرى بينها اختصام وصراع فكري وسياسي بسبب ما اعتقدته من أصول الدين وقواعده يتخرج فهمها للدين ومسائله على ضوء هاتيك القواعد والأصول كالإباضية والمعتزلة والخوارج والأشاعرة وسائر خديناتها من الفرق الإسلامية التي تطوح بينها الخلاف إلى أقصاه.

" ولا عجب فقد انعكست أصول فهم الدين لتلك الفرق على واقع العمل بعد واقع الفكر فراحت كل فرقة سياسية ودينية تُؤسِّسُ أُسسًا وتُقعد قواعد وتؤصل أصولاً في سبيل بناء منهجها والدعوة إليه وتتحمل المشاق العلمية والعملية من أجله... ".¹ وما من شك في أن هذا الصراع الفكري الذي استعر أواره في تاريخ تراثنا الديني قد أفرز ركائماً هائلةً من الأفكار والمناهج تشد

القارئ له والمطلع عليه إلى البحث فيه شدةً " خصوصاً في المناهج والأفكار التي انتسبت إلى علماء سمّت بهم مكانتهم العلمية إلى مستوى التجديد والاجتهاد والفهم والتأصيل والتأويل في مجال علم الأصوليين: علم أصول الدين أو ما يسمى بعلم الكلام أو التوحيد وأصول الفقه ومناهج الاستنباط"².

فمن ثمة رأينا ضرورة التعريف بالمنهجية النظرية الاستدلالية التي استخدمتها الإباضية من خلال المباحث المتعلقة بأصول العقيدة الإسلامية وأركانها المعروضة في أجلّ مضامها العلمية، ومن ثمّ فإن الإشكال الرئيس الذي يدور عليه موضوع البحث هو: ما هي ضوابط الإباضية في الاحتجاج والاستدلال على كليات مسائل العقيدة والشريعة وأصولهما؟.

وما هي الدوافع الموضوعية والمؤثرات الفلسفية التي صاغت الشخصية الإباضية في منظومة الجدل العلمي؟ وما هي أهم المقولات الإبستيمية التي يتكئ عليها الخطاب الإباضي في إثراء البرنامج العقدي والتشريعي للفكر الإسلامي؟.

لقد رأينا أن ما يلفت النظر إلى الدراسات المقدمة في مجال علم الكلام أو ما اصطلاح عليه ابستيميا في عرض مسائل العقيدة الإسلامية والدفاع عنها بمنهج الاستدلال العقلي، يجدها من النزرة والقلة ما يدخلها في حكم الدراسات غير الكافية على مستوى الآثار والإسهامات في مجالات العلوم الشرعية أو في مجال المنهج الذي اعتضدت به الإباضية وشاركت من خلاله في تشييد البنية الاستدلالية للعقيدة الإسلامية داخل مذهبي المعتزلة والحوارج " الذي كان حدثاً فكرياً ودينيا متألّقا في تاريخ الفكر الإسلامي. فهو ميلاد جديد للمنهج الاستدلالي المتوسط بين العقل ودليل النقل"³. أو كما يدل عليه العنوان بين " التزام النص وحجية إعمال الرأي". هذه كبرى التساؤلات الرئيسة لهذه الدراسة المتفرعة من الإشكال الرئيس والمتمثل في إجلاء الطبيعة النظرية والصيغة المنهجية التي اعتمدها المذهب الإباضي في الحجج على العقيدة الإسلامية بطريقته السنية.

منهج البحث:

رغبة منا في طرق ما لم يكن مطروقا، لسد فراغ علمي، فضلنا أن تكون الدراسات في مجال علم الكلام من جهة المنهج النظري الذي تعرض به تعبر من أقل الدراسات التي تتناول بالمعالجة والتحليل التراث النظري الذي خلفه علماء الكلام والفلسفة الإسلامية، السبب الذي يفضي إلى قلة إحاطة بأصالة مناهج علمائنا في هذا المجال، وخصوصاً عند أئمة الإباضية؛ التي ما تزال أرضية بكرًا لم تحظ بما هي جديرة به من الدرس والتمحيص، وجلّ ما حظيت به من بحوث دراسية قليلة وإشارات علمية لطيفة إنما كان ينصبُّ - بوجه خاص - على دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية في ضوء البحث في المؤثرات الفلسفية بين المذاهب وفق المعطى التراثي؛ إذ لم نجد من تعرّض لمنهج الإباضية الاستدلالي على مسائل العقيدة بصورة كافية توجب الاعتبار. وهذا ما دفعنا على طرق هذا الموضوع والتبحر في لجّته معتمدين على المنهج الذي يتلاءم مع طبيعة البحث ويوائم مادته العلمية ألا وهو المنهج التحليلي التفسيري مع انتهاج منهج النقد والحفريات التاريخية أحياناً فيما يكون داعياً له. " على اعتبار أن التحليل والتفسير هو السبيل الكاشف عن الطبيعة النظرية لمنهج أي نسق معرفي"⁴. سواء كان مذهباً فقهياً أو تياراً فكرياً.

لذلك كان الاعتماد كثيراً على الدراسات في مجال العقيدة الإسلامية وعلم الكلام والفلسفة وعلم الفقه وعلم البلاغة العربية وعلوم اللغة واللسان التي اتخذت من جهود الجويني إمام الحرمين (ت 478 هـ) في: "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد". وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ) في: "المنقذ من الضلال وإحياء علوم الدين". والشهرستاني (ت 548 هـ) في: "الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي". وشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت 728 هـ) في: "مجموع الفتاوى". وعضد الدين الأيجي (ت 756 هـ) في: "المواقف في علم الكلام وشرحه للسيد علي بن محمد الجرجاني". وعبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ) في: "المقدمة". وقطب المذهب الإباضي الشيخ محمد بن يوسف أطقيش (ت 1332 هـ) في: "التل وشفاء العليل". وعرفان عبد الحميد في: "دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية". واللواء حسن صادق في: "جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات". ومحمد عبد الحليم عبد الفتاح في: "موسوعة الأديان". وعبد المنعم الحفني في: "موسوعة الفلسفة والفلاسفة". والشيخ محمد الغزالي في سلسلة: "جرعات الحق المر". ومحمد بومعيزة في: "منهج

الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة - رسالة الماجستير في العقيدة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2002/2001. مرجعية لها. أما خلال محاولة ضبط الجهاز الاصطلاحي للبحث فقد كُنَّا نعود باستمرار إلى لسان العرب لابن منظور ومعجم مصطلحات الإباضية وذلك لبساطة هذه المعاجم اللغوية والكلامية وراثتها وبعدها عن التعقيد في المفاهيم.

♦ مدخل إلى علم الكلام الإسلامي

• تعريف الكلام:

■ الكلام: القول، وقيل: الكلام ما كان مكتفياً بنفسه وهو الجملة، والقول ما لم يكن مكتفياً بنفسه وهو الجزء من الجملة. ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا: " القرآن كلام الله " ولا يقولوا: " القرآن قول الله ". ثم إنهم قد يتوسعون فيضعون كل واحد منهما موضع الآخر⁵.

■ الكلام: هو ما سمع وفهم، وقيل: هو حروف مؤلفة دالة على معنى⁶. وهو " ألفاظ تشتمل على معاني تدلّ عليها ويعبر عنها "⁷.

فاللغة وسيلة التفاهم وأداة للتعبير عن المعاني، وهي تتكون من كلمات، وكل ما تركيب من كلمتين أو أكثر، وأفاد معنى تاما يسمى - في اصطلاح النحاة - كلاما، أو جملة مفيدة. هذا من حيث الاشتقاق اللغوي لمصطلح الكلام أما من حيث الدلالة البلاغية " فلعل الكلام حول مفهوم الخير والإنشاء قد نشأ مع نشأة الجدل في عصر المأمون حول فتنة القول أو الكلام بخلق القرآن "⁸.

وينحو مفهوم الكلام في أدلة الفلاسفة وأقطاب الفرق والعقائد الإسلامية مدلولاً ابستمياً آخر، فهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، هو بما أمر وناهٍ ومخبر، دل على ذلك ما أوحاه إلى رسله في القرآن والتوراة والإنجيل، وهذا الكلام عند الجويني إمام الحرمين (ت 478هـ) لا مفتتح لوجوده، قال في ذلك: " وأطبق المنتمون إلى الإسلام على إثبات الكلام، ولم يصر صائر إلى نفيه ولم ينتحل أحد في كونه متكلما نخله نفاة الصفات، ثم ذهب المعتزلة والخوارج والزيدية والإمامية ومن عداهم من أهل الأهواء إلى أن كلام الباري تعالى عن قول الزائفين حادث مفتتح الوجود "⁹.

" وكلام الله تعالى على قياس هذا الأصل واحد غير متعدد، قديم غير مجدد، متعلق بجميع المتعلقات، ولم يصير أحد من أهل الإسلام إلى إثبات كلام متجدد فهو صالح لأنه تتعلق به جميع المتعلقات المتجددة، ولم ينحصر إمام الحرمين عند هذا الحد من السير، بل امتدت هجمته الجدلية إلى المعتزلة الذين زعموا أن كلام الله مخلوق كما يخص قول من امتنع من تسميته مخلوقاً مع القطع بجدته"¹⁰.

من هنا تتبين ماهية الكلام من حيث بنيته في النفس حيث يمكن الاستدلال له من جهة اللغة وإطلاق اللسان، لأن العرب تسمى ما جال بالبال كلاماً قائماً بالنفس ويؤيد هذا الطرح المعري قول الجويني: " وإن رددنا إلى إطلاق أهل اللسان عرفنا قطعاً أن العرب تطلق كلام النفس والقول الدائر في الخلد وتقول كان في نفسي كلام، وزورت في نفسي قولاً وإشتهار ذلك يغني عن الاستشهاد عليه بنثر نادر أو شعر شاعر وقد قال الأخطل:

إن الكلام لفي الفوائد وإنما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلاً.

وكلام الله تعالى القديم ليس هو بحروف أو أصوات غير مشابه لكلام المخلوقين، وليس يقع بجارحة متعلق بالمأمورات والمنهيات والمخبرات ولا يتحدد في نفسه، بل المتعلقات هي المتجددات¹¹. ويبدو واضحاً مما تقدم أن علم الكلام هو ذلك العلم الذي يختص بموضوع الإيمان العقلي بالله تعالى. حيث يشكل عرضه العام الانتقال بالمسلم من التقليد إلى اليقين وإثبات أصول الدين الإسلامي بالأدلة المفيدة لليقين بها.

ومن خلال هذه المقاربات المعرفية حري بنا أن نسط المفهوم الإبستيمي لعلم الكلام من منوال علم الكلام الإسلامي، حيث اختلف تعريف العلماء حوله اختلافاً يوازي اختلافهم في وجهات النظر:

فالإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)، يعرفه بقوله: " علم الكلام مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة. فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم وديانهم. كما نطق بمعرفة القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف تلبسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله"¹².

ويعرفه عضد الدين الأيجي (ت 756 هـ)، بقوله: " علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة، والمراد بالعقائد: ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الخصم وإن أخطأناه، لا نخرجه من علماء الكلام"¹³.

ويعرفه التهانوي (ت 1158 هـ)، بقوله: " علم الكلام: علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه، وفي اختيار إثبات العقائد على تحصيلها، إشعار بأن ثمره الكلام إثباتها على الغير وبأن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتد بها، وإن كانت مما يستقل العقل فيه"¹⁴.

ويعرفه ابن خلدون (ت 808 هـ)، بقوله: " علم الكلام: هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة"¹⁵.

ويعرفه الجرجاني (ت 816 هـ)، بقوله: " علم يبحث فيه ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام، والقيود الأخير لإخراج العلم الإلهي للفلاسفة أو علم باحث عن أمور يعلم منها المعاد، وما يتعلق به من الجنة والنار والصراف والميزان والثواب والعقاب، وقيل: الكلام هو العلم بالقواعد الاعتقادية للكسبية عن الأدلة"¹⁶.

وتأسيساً على هذه للمقاربات المعرفية للمختلفة لعلم الكلام يمكن استنتاج جملة من أمور هي:

أ- "إن علم الكلام يأخذ بمنهج البحث والنظر والاستدلال العقلي كوسيلة لإثبات العقائد الدينية التي ثبتت بالوحي ولهذا فهو يعرف أحياناً بـ"علم النظر والاستدلال"
ب- إن وظيفة علم الكلام إنما هي دفع الشُّبُهَة وردَّ الخصوم والاحتجاج العقلي على صحة العقائد الإيمانية كما يراها السلف وأهل السنة"¹⁷.

ج- من العلماء من يرى أن لعلم الكلام وظيفتين مزدوجتين هما:

* - أولاً: إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية.

* - ثانياً: دفع الشبه ورد الخصوم عنها.

" وهذا الخلاف الأخير يرجع كما يقول الأستاذ المرحوم مصطفى عبد الرزاق: " إلى الاختلاف في مسألة: هل أن العقائد الدينية ثابتة بالشرع، وإنما يفهمها العقل والشرع ويلتمس لها بعد ذلك

البراهين النظرية ؟ أو هي ثابتة بالعقل بمعنى أن النصوص الدينية قررت العقائد الدينية بأدلتها ؟
"18".

ومن أشهر أسماء علم الكلام، أنه سمي النظر العقلي في العقائد الدينية بأسماء مختلفة، منها:
الفقه الأكبر: حيث سماه بهذا الاسم الإمام أبو حنيفة (ت 150 هـ) في كتابه الموسوم بـ " الفقه الأكبر " حيث يذكر الإمام بأن " الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع، وفضل الأصل على الفرع معلوم "19.

علم النظر والاستدلال: سمي بهذا الاسم باعتبار المنهج الذي يعتمده والذي يقوم على التأمل الفكري والنظر والاستدلال في مباحثه وموضوعاته²⁰.

علم التوحيد والصفات: سمي بهذا الاسم باعتبار الموضوع، إذ أن مشكلة التوحيد والصفات الإلهية تكونان أشهر مباحث هذا العلم وأهمها.

ويسمى أيضا بعلم أصول الدين: لأنه يتعلق بالنظر في أصول العقيدة الدينية وأركانها، مقابل علم "الفقه" الذي يتعلق بالفروع العملية للشريعة الإسلامية.

يقول الشهرستاني (ت 548 هـ) : " قال بعض المتكلمين: الأصول هي معرفة الله تعالى بوحدها وخصائصه ووصفاته؛ ومعرفة الرسل بأياتهم وبيئاتهم... ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصوليا. ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعيا. والأصول هي موضوع علم الكلام؛ والفروع هي موضوع علم الفقه"21.

أما الاسم الشائع لهذا العلم فهو " علم الكلام " وذلك لجملة أسباب هي:
إن أهم مسألة وقع الخلاف فيها في العصر الأول، كانت مسألة كلام الله تعالى، وهل هو أزلي قائم بذاته ؟ أم مخلوق حادث ؟ فسمي العلم بأهم مسألة فيه.

أو إن مبناه كلام صرف في المناظرات على العقائد وليس يرجع إلى عمل.
أو إنه في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق في توضيحه مسالك الحجج في الفلسفة، فوضع للأول اسما مرادفاً للثاني وسمي كلاما في مقابل كلمة " منطق ".

أو إن أبوابه عنونت بـ " الكلام في كذا ".

أو إنه لقوة أدلته صار كأنه " الكلام " دون ما عداه من العلوم، كما يقال للأفوى من الكلاميين هذا هو " الكلام " .

ولعل أوجه الأسباب في تسميته بالكلام أن أصحابه تكتموا حيث كان السلف يسكت فيما تكلموا فيه. فقد أورد السيوطي (ت 911 هـ) في كتابه الموسوم بـ " صون المنطق "22. عن مالك بن أنس - رضي الله عنه - قوله: " إياكم والبدع ؟ قيل يا أبا عبد الله وما البدع ! قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عمّا سكنت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان " وأورد عنه ابن عبد البر، قوله: " الكلام في الدين أكرهه، ولا زال أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا في فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله، وفي الله عز وجل، فالسكوت أحبُّ إليّ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل "23.

وروي ابن بابويه القمي عن الإمام جعفر الصادق - رضي الله عنه - قوله: " إذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا "24. وفي نفس السياق يمكن إيراد قوله صلى الله عليه وسلم: { إن الله شرع لكم أمورا فأتوها ونهاكم عن أشياء فانتهاها عنها وسكت عن أشياء رحمة بكم لا نسيان منه فلا تسألوا عنها }25.

ويدل على ذات السياق قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّ لَكُمْ عَمَّا لِلَّهِ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ (سورة المائدة، 101، 102).

♦ الدلالة الفلسفية للمقولات: Catégories

بعد الإفاضة المفهومية لكل من القول والكلام معجميًا ودلاليًا ومحاولة سحب المصطلحين على موضوع بحثنا، نقفز رأسًا إلى بسط المدلول الإبستيمي للمقولات فهي تطلق ويراد بها " أنواع الصفات المضافة أو المسندة أو المقولة، أي المحمولات المعرفية التي نستطيع أن نصف بها فردًا كائنًا ما كان. فإذا سأل سائل عن أي شيء ما هو ؟ كان حتمًا أن يقع الجواب تحت واحد منهما، فالمقولة معنى كلي يمكن أن يدخل محمولاً في أي قضية.

واختلف الفلاسفة في عددها، فأرسطو الفيلسوف اليوناني يجعلها عشرة تقابل جميع الأجوبة لجملة الأسئلة التي يمكن أن تثار بصدد شيء ما. وهذه الأسئلة عشرة يجاب عنها بعشرة محمولات هي:

الجوهر، والكم، والكيف، والإضافة، والفعل، والانفعال، والمكان، والزمان، والوضع، والحال. فإذا سألت عن سقراط مثلاً، ما هو؟ وكان الجواب بأنه إنسان فيلسوف، فقد علمت جوهره. وإذا سألت عن شيء وكان الجواب ثلاثة أمتار، فالجواب وصف لكميته. وقد يوصف الشيء بكيفيته فيقال بأنه أبيض. وقد يوصف بإضافته إلى شيء آخر فيقال إنه أكبر أو أصغر منه أو بمكانه فيقال إنه في أثينا، أو بزمانه فيقال القرن الخامس قبل الميلاد، أو بوضعه فيقال إنه جالس، أو بملكه أي بحالته فيقال بأنه شاهر السلاح، أو بالفعل فيقال إنه يجادل، أو بالانفعال فيقال إنه غاضب. وكانط الفيلسوف الألماني يجعل المقولات معانٍ ابستمية رابطة بين الظواهر المعروضة في المكان والزمان، ويجعلها أربعاً، هي: الكم، والكيف، والإضافة، والجهة، وتنقسم كلٌّ منها بدورها إلى ثلاث:

فالكم ينقسم إلى الوحدة والكثرة والجملة، والكيف إلى موجود وسلب وحدّ، والإضافة إلى جوهر وعلية وتفاعل، والجهة إلى مكان وضرورة واستحالة²⁶.

♦ مفهوم الإباضية بين الاشتقاق اللغوي والمسرد التاريخي

تمهيد:

الحديث عن الإباضية يقودنا حتماً إلى البحث في الفرق والعقائد الإسلامية وهو بدوره يسعى إلى توثيق التراث الديني والفكري لرسالة الإسلام العالمية، ويقيناً منّا " بأنّ العمل المصطلحي شديد الأهمية لتلمس مفاتيح المذهب، كما أنه شديد الأهمية في المقارنة من خلال المصطلحات والمفاهيم مع المذاهب الأخرى، وهو أخيراً مُهمٌّ لأنه يضع خريطة لركائز المذهب، وللقواعد والأصول والأدلة التي استخدمت عبر العصور.... كما هو عمل مهم يتعرف من خلاله النارسون على أصول للمذهب ومفاهيمه، وآليات وأدوات الاجتهاد فيه"²⁷.

• مفهوم الإباضية معجمياً ودلاليًا:

ورد مصطلح الإباضية في الحقل المعرفي الخاص بالحضارة والعقيدة والفقهاء والمذاهب بكسر الهمزة أو فتحها، يقول القطب أطفيش (ت 1332 هـ) أشهر مراجع الإباضية: " الإباضية بكسر الهمزة على أنها الأصح ".

وهي تسمية اصطلاحية تطلق على أتباع الإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (ت 93 هـ/711م) في العقيدة والفقهاء والحضارة.

جاء في معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)، "... عُرِفَ أتباع (الإباضية) في التاريخ منذ صدر الإسلام، وكانت جماعتهم تُسمَّى أهل الحق وأهل الدعوة وأهل الاستقامة، ولم تختَر لنفسها اسم الإباضية، بل دعاها به غيرها، نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمي، ثم قبلته نزولاً على الأمر الواقع، فكان الإباضية ينسبون أنفسهم إلى الفكرة لا إلى زعيم أو إمام، ويعتقد الإباضية أن منهجهم هو الفهم الصحيح للإسلام كما أوضحته مصادره الأساسية من الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين"²⁸.

• مسرد تاريخي للمذهب الإباضي:

" الإباضية مذهب إسلامي صحيح، تصدر المذاهب والفرق الإسلامية في نشأته، وكان ذلك على يد الإمام التابعي جابر بن زيد الأزدي (ت 93 هـ)، ولكنه يُنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي (ت 705 هـ/86م) نسبة غير قياسية، وإنما بسبب ما اشتهر به ابن إباض من مراسلات سياسية دينية، مع الخليفة عبد الملك بن مروان، ونقده لأسلوب الحكم الأموي، الذي ابتعد عن نهج الخلفاء الراشدين، ودعوته الحكام الأمويين للعودة إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين من بعده أو اعتزال أمر المسلمين. كما عُرِف بمواقفه الحازمة ومواجهته الصارمة لانحراف الخوارج عن الفهم السليم لأحكام الإسلام وتعاليمه.

وظهر عند الناس بمظهر الزعيم؛ فُعُرِف أصحابه بأتباع ابن إباض أو الإباضية، وغدت بذلك هذه التسمية، نسبة اصطلاحية يُعرف بها أتباع الإمام جابر بن زيد، الذي يمثل أسس مذهبهم في العلم، وهو ما اتفقت عليها المصادر الإباضية"²⁹.

إن مخالفة عبد الله بن إباح لنافع بن الأزرق عام 64هـ / 683م لا تعني أنه رسم بفعله - ذلك - منهج الإباضية، لأن دوره هنا وفي كلِّ موقفه، إنما هو إبراز الرأي لا إنشاؤه، فالرأي رأي جابر بن زيد إمام المذهب، هو المنشئ له؛ وعبد الله بن إباح هو المنفِّذ المبرز لذلك الرأي. إن مسألة إمامة جابر بن زيد للإباضية، والذين تزخر كتبهم بأرائه الفقهية والسياسية، لم تعد قابلة للأخذ والرد نظراً لتضافر الأدلة القوية على صحتها وهو ما أدركتها الدراسات الأكاديمية³⁰. لم يكن أتباع جابر بن زيد يستعملون مصطلح الإباضية على الأقل في القرنين الأول والثاني، وإن تداوله مخالفوهم وأصبح تسمية مشهورة، التصقت بهم، بحيث لم يستطيعوا دفعها، يقول السالمي:

إن المخالفين قد سمونا	بذاك غير أننا رضينا
وأصله أن فتى إباح	كان محامياً لنا وماض
مدافعاً أعداءنا بالحجة	وحامياً إخواننا بالشوكة ³¹ .

• التأسيس والمنهج وأبرز الشخصيات:

يبدو أنّ بدايات استعمال جابر بن زيد للفظ "الإباضية" كان مع نهايات القرن 3هـ/9م. وذلك عند عمرو بن فتح النفوسي (ت 283هـ / 896 م) في كتابه الموسوم بـ: "الدينونة الصافية"، ثم في كتاب الجامع للكدمي (ق 4هـ / 10م) وكتاب الموازنة لابن بركة (ق 4هـ / 10م). وخلف أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي جابر بن زيد في إمامة المذهب، فكان العامل على نشر الإباضية في المشرق والمغرب، انطلاقاً من البصرة في العراق إلى عُمان بحدودها السياسية القديمة التي تصل إلى البحرين شمالاً، وإلى سومطرة جنوب شرق آسيا باندونيسيا. وقد وجدت الإباضية في اليمن وفي خراسان. وأسهمت التجارة العُمانية في إيصال الإسلام إلى بلاد الهند وماليزيا والصين، وإلى بعض الجمهوريات الإسلامية المحاذية لروسيا الاتحادية حالياً، وإلى مناطق واسعة من إفريقيا الشرقية، بخاصة كينيا وتنزانيا ومدغشقر وجزيرة زنجبار. انتقل المذهب الإباضي مع حملة العلم إلى بلاد المغرب، واعتنقه البربر في شمال إفريقيا: ليبيا، وتونس، والجزائر. ومنها إلى مصر والأندلس وبلاد السودان الغربي: كالسينغال ومالي والنيجر وتشاد وغانا.

تستند الإباضية في منهجها المعرفي إلى المصادر المتفق عليها بين المسلمين: الكتاب والسنة والاجتهاد بأوسع معانيه، واتسمت هذه المنهجية بالاعتدال بين التزام النص وإعمال الرأي والتعليل، وباعتماد الدليل الشرعي في كل الأحوال. ولما عرفت الإباضية بيئات عديدة، ومجتمعات متباينة واعتنقتها أجناس مختلفة، كان ذلك عاملاً أسهم في ثراء فقهها وبروزها الحضاري³².

• مراحل تأسيس المذهب الإباضي:

لقد مرت الإباضية في خضم تأسيسها بمراحل ومحطات عديدة أهمها:

* - أولاً: مرحلة التأسيس في القرن الأول الهجري وبداية الثاني، وتشمل مرحلة البصرة وانتشار المذهب على يد حَمَلَة العلم في المشرق والمغرب.

* - ثانياً: مرحلة إقامة الإمامات في القرن (2هـ / 8م)، كإمامة طالب الحق باليمن، والإمامة الأولى والثانية في عُمان، التي استمرت إلى القرن (14هـ / 20م) وإمامة الرستميين في بلاد المغرب في القرنين (2 و3هـ / 8 و9م).

* - ثالثاً: مرحلة الأزمات والمواجهات مع أنظمة حاولت إزالة دولة الإباضية: كالفاطميين في بلاد المغرب، والعباسيين والبويهيين في بلاد المشرق، وكلها كانت في القرن (3هـ / 9م). وتحقق للفاطميين إسقاط الرستميين، الأمر الذي لم يتحقق للعباسيين في شأن الإمامة بعُمان. إلا أن الإباضية هناك دخلت في أزمة ازدواجية السلطة، بحيث عاشت عُمان تحت سلطة الإمامة في شق من جغرافيتها، وعرف الشق الآخر نظام الملك المتوارث، تحت أسرة النباهنة أولاً، ثم أسرة البوسعيديين التي أقامت سلطنة قوية بداية من القرن (12هـ / 18م).

* - رابعاً: مرحلة التجمعات في بلاد المغرب: انتقل الإباضية إلى تجمعات تحت سلطة هيئة من المشايخ، أطلقوا عليها تسمية " العزّابية "، أشرفت على المجتمع في كل جوانبه الدينية والاجتماعية والسياسية إلى اليوم، وبقي العلماء يشرفون بشكل مباشر على المجتمع الإباضي مشرفاً تحت نظام الإمامة ثم السلطنة، ومغرباً تحت نظام العزّابية، وخير نموذج للتكافل الاجتماعي وشيوع الروح الدينية في نسقه المادي والأدبي سلطنة عمان بالمشرق العربي وغرداية ومنطقة ميزاب

بمغربه هذه الأخيرة التي تبقى شاهدة على سمو الروح في الصحوّة الإيمانية ومسالك الصيرورة الاجتماعية الناجحة التي ينصفها الواقع وتؤيدها الحقائق والمنجز القومي الإيجابي في تفعيل الحراك الجمعي والسياسيوالحفاظ على التماسك الاجتماعي الذي قلّ نظيره حتى في الدول الكبرى. وهذه دلالة قوية تصرخ في آذان الكثير من المنصفين في المعطى السياسي والديني، باعتبار أن " الإباضية في منهجها المعرفي تستند إلى المصادر المتفق عليها بين المسلمين: الكتاب والسنة والاجتهاد بأوسع معانيه، وهي أقوى المذاهب الإسلامية في تبنى روح الإسلام بين التزام النص و حجية إعمال الرأي والتعليل، وباعتماد الدليل الشرعي في كل الأحوال³³.

• أبرز الشخصيات:

كل أمة تزخر بكبار شخصياتها العلمية والسياسية والأدبية والدينية، ولقد تربعت الإباضية على أرضية واسعة في الوطن العربي والإسلامي بكبار العلماء.

فمن أبرز علماء الإباضية بالمشرق الإسلامي:

بعد إمامها جابر بن زيد الذي " يعد من أوائل المشتغلين بتدوين الحديث آخذاً العلم عن عبد الله بن عباس (ترجمان القرآن) الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم:

{ اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل }³⁴. وعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وغيرهم من كبار الصحابة، مع أن جابراً قد تبرأ منهم*.

"أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة: من أشهر تلاميذ جابر بن زيد، وقد أصبح مرجع الإباضية بعده مشتهراً بلقب القفاف، توفي في ولاية أبي جعفر المنصور (158 هـ).

الربيع بن حبيب الفراهيدي (ق2هـ / 8م) الذي عاش في منتصف القرن الثاني للهجرة وينسبون له مسنداً خاصاً به يسمى "مسند الربيع بن حبيب" وهو مطبوع ومتداول³⁵.

ومن أبرز العلماء الذين تعاقبوا على المذهب الإباضي في المشرق الإسلامي نجد كلا من:

محمد بن محبوب في (ق3هـ / 9م).

ومحمد بن سعيد الكدمي في (ق4هـ / 10م).

ومحمد بن بركة البهلوي في (ق4هـ / 10م).

وسلمة بن مسلم العوتي في (ق6هـ / 11م).

- وأحمد بن عبد الله الكندي في (ق 6هـ / 12 م).
- ومحمد بن إبراهيم الكندي في (ق 6هـ / 12 م).
- والإمام عبد الله بن حميد السالمي (ت 1332هـ / 1914م)³⁶.
- أما في المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي) أيام الدولة العباسية، فمن أئمتهم:
الإمام الحارث بن تليد.
أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري.
أبو حاتم يعقوب بن حبيب.
حاتم الملزوزي.
- ومن الأئمة الذين تعاقبوا على الدولة الرستمية نسبةً إلى مؤسسها عبد الرحمن بن رستم (ت 171هـ / 887م) وعاصمتها " تاهرت " بالجزائر، ودامت مدة حكم هذه الدولة تحت تنوير المذهب الإباضي 133 سنة³⁷.
- ومن العلماء الذين تعاقبوا على الدولة الرستمية:
- " سلمة بن سعد: حيث قام بنشر للمذهب الإباضي في إفريقيا في أوائل القرن الثاني الهجري.
 - ابن مقطير الجنائوني: حيث تلقى علومه في البصرة وعاد إلى موطنه في جبل نفوسة بليبيا ليسهم في نشر المذهب الإباضي.
 - عبد الجبار بن قيس المرادي: كان قاضياً أيام إمامهم الحارث بن تليد.
 - السمح أبو طالب: من علمائهم في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وكان وزيراً للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثم عاملاً له على جبل نفوسة بليبيا.
 - أبو ذر أبان بن وسيم: من علمائهم في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، وكان عاملاً للإمام أفلح بن عبد الوهاب بن رستم على حيز طرابلس³⁸.
 - " أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي: مؤسس نظام الحلقة (ت 440هـ / 1049م).
 - أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوجيهاني، ومعاصره أبو عثمان الكافي (ق 6هـ / 12م)
 - أبو ساكن عامر بن علي الشماخي (ت 792هـ / 1389م).
 - عبد العزيز بن إبراهيم الثميني (ت 1223هـ / 1808م).
 - محمد بن يوسف أطفيس (ت 1332/1914م)، ويعد قطبومرجع الإباضية في الجزائر

- إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، وسليمان بن عبد الله الباروني، وإبراهيم بن عمر بيّوض وعلي يحي معمر وكلهم من فطاحلة المذهب الإباضي في المغرب الإسلامي - الجزائر تحديداً...³⁹.
ومن خلال هذا المسرد التاريخي للمرجعيات الإباضية مشرقاً ومغرباً، يتجلى واضحاً الحضور القوي - زمانياً ومكانياً - لهذه الحركة الدينية والفرقة الكلامية " التي أسهمت بآرائهم المكتوب في الفكر الإسلامي، والفكر السياسي ببناء كيانات الإمامة، وتطبيق السياسة الشرعية المقتضية آثار الخلفاء الراشدين، ولهم دور بارز في نشر الإسلام وحضارته وذلك في حقول التجارة، وال عمران والري والنظم الاجتماعية والتربوية"⁴⁰.

♦ مدخل إلى العقائد الدينية والفكرية للإباضية

من أهم المشكلات التي تقف أمام محاولة تقنين وضبط المصطلح الكلامي، وعلاقته بأطر الحجاج العقلي في الاستدلال على العقيدة، تناثر المصطلحات الكلامية داخل المنظومة الدينية للمذاهب والفرق والجماعات مما يحتاج إلى أناة وتمهل حتى يمكن جمع شتات تلك المصطلحات... " فالنص الديني المقدس " القرآن الكريم " معجزات ربانية وطاقات لغوية ونصوص عقدية وتشريعية أزلية لا تنضب، وإبداع إلهي متجدد لا تقيدده مبادئ مطلقة، ومن ثمّ فإن القواعد التي تحكمه ليست بالضرورة خاضعة لمنطق الثبات والاستقرار"⁴¹.

فالمذهب الإباضي امتداد تاريخي للفكر الإسلامي الذي نما وترعرع في تربة الجدل الكلامي والفلسفي في الاستدلال على العقيدة - في عصوره الذهبية الأولى - من الاجتهاد بالعقل في ضوء تعاليم الكتاب والسنة، ولقد أثارت الإباضية الكثير من الجدل وأحدث الكثير من أساليب الحجاج في الدفاع عن الموروث الحضاري للإسلام وكانت - أي الإباضية - ميلاد عهد جديد لفتوحات عوملة النص الديني مما تمخض عنها الكثير من الفرق والمذاهب كالخوارج والمعتزلة والأشاعرة فيما بعد... الذين أرسوا دعائم أصول الدين فيما أرسى غيرهم أسس أصول الفقه ويؤكد هذه المسلمة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت 728 هـ)، قائلاً: "... وإن كان مقصوده بالأصولي من يعرف " أصول الفقه " وهي أدلة الأحكام الشرعية على طريقة الإجمال، بحيث يميّز بين الدليل الشرعي وبين غيره؛ ويعرف مراتب الأدلة؛ فيقدم الراجح منها - وهذا هو موضوع أصول الفقه - فإن موضوعه معرفة الدليل الشرعي ومرتبته، فكل مجتهد في الإسلام

أصولي؛ إذ معرفة الدليل الشرعي ومرتبته بعض ما يعرفه المجتهد، ولا يكفي في كونه مجتهداً أن يعرف جنس الأدلة بل لا بدّ أن يعرف أعيان الأدلة، ومَنْ عرف أعيانها وميّز بين أعيان الأدلة الشرعية وبين غيرها كان بجنسها أعرف، كمن يعرف أن يميز بين أشخاص وغيرها، فالتمييز بين نوعها لازم لذلك، إذ يتمتع تمييز الأشخاص بدون تمييز الأنواع.

فالأصوليون يذكرون في مسائل أصول الفقه مذاهب المجتهدين كمالك، والشافعي، والأوزاعي، وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل، ومذاهب أتباعهم... وقد عرفوا أصول الفقه بأعيانها مستعملين إياها في الاستدلال على الأحكام⁴². " إن العقل المؤمن مرصد واعٍ يلتقط كل ما يمس الإسلام من قريب أو من بعيد، فإن المهتمين بأمر الإسلام يرددون ما يمس حقيقة رسالته ومسار دعوته وشؤون أمته، وعوامل المد والجزر، واليقظة والغفلة، ثم يقدمون حساباً مضبوطاً لما رصدوه...⁴³.

لقد قدمت الإباضية للناس حقائق ناصعة عن الإسلام تعلمتها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن فيض عالم الترجمة ونقل علوم الغير إلى المسلمين وبنظرة ثاقبة للتاريخ ووقائع الأحداث القريبة والبعيدة وتحليل صحيح لها. كما " عرفت دور العقيدة في تكوين النهضات، فقرروا أن يجعلوا هذه العقيدة طاقة يتحملون بها المتاعب ويستهنون في سبيلها بالتضحيات الجسيمة⁴⁴.

♦ أفكار ومعتقدات الإباضية

- المقولات الكلامية بين جدلية الخطاب الديني وتحليلات الأنساق المعرفية - ما يجب تأكيده بادئ ذي بدء أن فرقة الإباضية هي التي تنصدر قافلة المذاهب والفرق والجماعات في النظرية والممارسة في العالم الإسلامي - حالياً - فلئن كانت فرقة الخوارج قد نشأت بعدما هو معروف من قضية التحكيم التي خدع فيها عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري، ودب الخلاف بين الخوارج فتفرقوا أحرزاً، كل حزب يفارق الآخر في المبدأ والعقيدة؛ ولكن يجمع الكل على مبدئين اثنين:

أحدهما: إكفار عثمان وعلي، ومعاوية، والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضي بالتحكيم.

ثانيهما: وجوب الخروج على السلطان الجائر.

وهناك مبدأ ثالث: يقول به أكثر الخوارج وهو الإكفار بارتكاب الكبائر.

فهل تجاوزت الإباضية المعايير الدينية لشرح البرنامج الأصولي للإسلام وتأصيله؟.

وهل طوّعت منظومة الحجاج لديها لهذه العالمية " عقيدة من مفردات الفكر الإسلامي التي تعتمد على نصوص قاطعة في كتاب الله وسنة رسوله ! ويستطيع قارئ القرآن الكريم أن يطالع هذه العالمية في سور التكوير، والقلم، و ص، وسبأ، والفرقان، والأنبياء، ويوسف، والأعراف، والأنعام، أي في عشرة مواضع متفرقة، وجميع هذه السور مكية؟⁴⁵ " ولسنا نعرف من فرق الخوارج فرقة باقية إلى اليوم غير فرقة الإباضية، وهي أعد لها...⁴⁶.

ومن الزخم العقائدي والفكري الذي وقع لنا من حجاجهم في الاستدلال على العقيدة والتي تأثرت إلى حدّ كبير بمعتقدات الإباضية ومبادئهم ما يلي:

" أصحاب عبد الله بن إباض الذي خرج في أيام مروان بن محمد، فوجه إليه عبد الله بن محمد بن عطية، فقاتله ببسالة وقيل إن عبد الله بن يحيى الإباضي كان رفيقاً له في جميع أحواله وأقواله قال: إن مخالفتنا من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومُنَاكحَتُهُمْ جائزة، وموارثتهم حلال وغنيمة أموالهم من السلاح والكرع عند الحرب حلال، وما سواه حرام. وحرام قتلهم وسيبهم، إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجّة. وقالوا: إن دار مخالفتهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي. وأجازوا شهادة مخالفتهم على أوليائهم، وقالوا في مرتكبي الكبائر: إنهم موحدون لا مؤمنون ثم اختلفوا في النفاق: أيسمى شركاً أم لا؟⁴⁷ قالوا: إنّ المنافقين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا موحدين، إلا أنهم ارتكبوا الكبائر، فكفروا بالكبيرة لا بالشرك وقالوا: كل شيء أمّر الله تعالى به فهو عام ليس بخاص وقد أمر به المؤمن والكافر وليس في القرآن خصوص. وقالوا: لا يخلق الله تعالى شيئاً إلاّ دليلاً على وحدانيته، ولا بد أن يدلّ به واحد. وقال قوم منهم: يجوز أن يخلق الله تعالى رسولاً بلا دليل ويكلف العباد بما أوحى إليه. ولا يجب عليه إظهار المعجزة، ولا يجب على الله تعالى ذلك إلى أن يخلق دليلاً"⁴⁷.

" وإباضية اليوم إحدى فرق الخوارج المعتدلين وأقربهم إلى أهل السنة والجماعة يسكنون سلطنة عمان⁴⁸. ومن مواقع انتشارهم ونفوذهم أنه " ما يزال لهم وجود إلى وقتنا الحاضر في كل من عُمان بنسبة مرتفعة وليبيا (بجبل نفوسة) وتونس (جزيرة جربة) والجزائر (غرداية ووادي ميزاب) وفي واحات الصحراء الغربية وفي زنجبار التي ضمت إلى تانجانيقا تحت اسم تنزانيا"⁴⁹.

" ولما ظهرت المذاهب الدينية تأثر الفكر الإسلامي بها إلى حد كبير، ذلك لأن القرآن الكريم كان هو المرجع الأول الذي يقصد إليه أصحاب المذاهب المختلفة - من المسلمين - ليأخذ كلّ منه ما

يشهد لمذهبه، ولو بطريق إخضاع النص القرآني له، وقسره على موافقة رأيه وهو، وتأويل ما يصادمه من ذلك تأويلاً لا ينافي مذهبه ولا يُعارضُ عقيدته⁵⁰.

لقد كانت فرقة الإباضية من بين هذه الفرق التي تأولت كثيراً من آيات القرآن الكريم على غير تأويلها، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاهها عقلياً حدسياً من أجل خدمة مبادئها التي تدين بها. وإذا ذهبنا نستعرض ما كتبه المفسرون من الإباضية في تفاسيرهم والأصوليون في معتقداتهم وأفكارهم، خرجنا منها بجملة كثيرة من هذه التأويلات، التي تتخدم أصولهم والتي تتقاطع مع الأصول الخمسة المنسوبة لفرقة المعتزلة في الجوهر لا في المظهر في المعنى والسياق وليس بالضرورة في المباني والمناهج. وهذه الأصول الخمسة التي يجمعون عليها، هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، وللتزلة بين الترتين، والأمر بال معروف والنهي عن المنكر.

وللإباضية آراؤهم في الاستدلال على أصول العقيدة الإسلامية " كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا وأعظم أمانة منّا فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم " ولكن يقتضينا الإنصاف للحقيقة أن عقائدهم أقرب لتوجهات أهل السنة والجماعة توائم بين تداعيات إثبات النقل وتحليلات الأنساق المعرفية المستنبطة من أصول الاجتهاد بالرأي بالرغم من العدول أحياناً من سلطة و قدسية النص قال عليه الصلاة والسلام { مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأَيْهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ }⁵¹. ويؤيد ذات السياق قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ ﴾ (المائدة، 55، 56). وقوله سبحانه: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء، 59). وهذه الأصول أمر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لشريح حيث قال: " قض بما في كتاب الله، فإن لم يكن فيما في سنة رسول الله، فإن لم يكن فيما اجتمع عليه الناس، وفي رواية فيما قضى به الصالحون⁵².

فأمّا الأمر باتباع الكتاب والسنة في نفس السياق فكثير جداً كقوله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء، 64).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء، 65).

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (سورة الأنعام، 153).

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (الأعراف، 3).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا يَا مَعْزُومِي فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف، 157، 158).

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور، 63)

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب، 36)

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر، 7).

وقال عليه الصلاة والسلام: { أنتم شهداء الله في الأرض }⁵³.

وتأسيسا على هذه المقاربات النصية القاطعة والأزلية والمقدسة، فإن المذهب الإباضي تبنى مشروعيتها نصًا وروحًا ولم يعزل العقيدة عن المعركة ولا الشريعة عن دنيا الناس، لقد استقلت الإباضية عن غيرها من الفرق والمذاهب بالرأي والموقف وأدرت في بداية تعاملها مع الدين البعد الرسالي للاحتجاج بالرأي وفضيلة التقارب مع المذاهب، ومعرفة الإسلام، بعد القرآن والسنة فقه حياة، والفقه والإجماع والاحتجاج لابد من دراسة واسعة لمختلف المذاهب والأفكار والعقائد. فهل هذه الفرق الكلامية خطأ عقلي وخطيئة خلقية، يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "إن العلم والإيمان قرينان، بل شيء واحد في الحقيقة ! وأنه ليس هناك يقين ديني يناقض يقينًا علميًا، وأن كلمات الله في وحيه ترديد لكلماته في صحائف الكون والحياة، وفي قيام السماوات والأرض"⁵⁴

الأفكار والمعتقدات:

إن مصدر الاعتقاد عند الإباضية والاستدلال عليه نابع من الخبر المتواتر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتقوم أدل عقائدهم على المعادلة الفلسفية الآتية:

1- كلام برهاني ← وهو ما وقع فيه من نص قرآني أو حديث قطعي الثبوت والدلالة.

2- قول جدلي ← وهو ما اختلف من المشهورات للمستبطة من الاستدلال والحجاج العقلي والذهبي...

3- قول خطاييو ← هو ما اختلف من المظنونات المترجحة الصدق على الكذب وهذه قضايا في

تأويل الخطاب الديني لدى الإباضية تتناولها بالقبول والرد حسب المقاييس العلمية والمصادر التقليدية على النحو الآتي:

صفات الباري سبحانه وتعالى هي هو؟ أم هي غيره؟ فمذهب الإباضية يرى أن صفاته الذاتية هي ذاته لا بشيء زائد عليه. ووافقهم على هذه المقولة الجدلية الفيلسوف ابن عربي الأندلسي، وقال لا فرق بين قول القائل: إنّ صفات الله تعالى غيره، وبين قول اليهود: إن الله فقير (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، إلاّ تحسين العبارة. ويظهر من خلال كتبهم ومرجعياتهم تعطيل الصفات الإلهية؛ وهم يلتقون إلى حد بعيد مع المعتزلة في تأويل الصفات ولكنهم يدعون أنهم ينطلقون في ذلك من منطلق عقدي، حيث يذهبون إلى تأويل الصفة تأويلاً مجازياً بما يفيد المعنى دون أن يؤدي ذلك إلى التشبيه. وللتأويل المجازي نكات بلاغية أشار إليها شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية بقوله: " إن الفائدة في استعمال اللفظ مجاز دون الحقيقة قد يكون لاختصاصه بالخفة على اللسان، أو لمساعدته على وزن الكلام نظماً ونثراً، أو للمطابقة والمجانسة والسجع، وقصد التعظيم، والعدول عن الحقيقي للتحقير؛ إلى غير ذلك من المقاصد في الكلام"⁵⁵.

ولكن كلمة الحق في هذا الصدد تبقى دائماً مع أهل السنة والجماعة المتبعين للدليل، من حيث إثبات الأسماء والصفات العليا لله تعالى كما أثبتنا نفسه، بلا تعطيل ولا تكيف ولا تحريف ولا تمثيل⁵⁶.

القول برؤية الباري سبحانه في الدار الآخرة، فالإباضية ينكرون ذلك؟ رغم ثبوتها في القرآن الكريم ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة، 22-23). والمنع قول عائشة رضي الله عنها من الصحابة وقتادة والزحخشري وغيرهم من المعتزلة والشيعية، والحجة قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام، 103)⁵⁷.

يؤولون بعض مسائل الآخرة تأويلاً مجازياً كالميزان والصراف.

أفعال الإنسان خلق من الله واكتساب من الإنسان، وهم بذلك يقفون موقفاً وسطاً بين القدرية والجبرية.

نفي التشبيه عن الله سبحانه وتعالى، فهذا يقول الإباضية، وكلّ ما ورد مما يوهم التشبيه فهو مؤوّل بما يليق به، كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر، 14). فأثبت عيوناً كثيرة وقال سبحانه في نفس السياق: ﴿وَلِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَنِّي﴾ (طه، 39) فدلت هذه الآيات على أنها غير مراد ظاهراً.

أو مقولة من قال: إن القرآن غير مخلوق، فعند المحققين في الإباضية أن القرآن مخلوق، إذ لا تخلو الأشياء إما أن تكون خالقاً أو مخلوقاً. وهذا الكتاب (القرآن) الذي بين أيدينا نقرأه ونرتله مخلوق

لا خالق لأنه منزل وملتو، وهو قول المعتزلة وقد وافقوا الخوارج في ذلك، يقول الأشعري: " والخوارج جميعاً يقولون بخلق القرآن"⁵⁸.

مقولات الإباضية في أصناف الناس:

■ مؤمنون أو فإء بإيمانهم.

■ مشركون واضحون في شركهم.

■ قوم أعلنوا كلمة التوحيد وأقروا بالإسلام لكنهم لم يلتزموا به سلوكاً وعبادة. فهم ليسوا مشركين لأنهم يقرون بالتوحيد، وهم كذلك ليسوا بالمؤمنين؛ لأنهم لا يلتزمون بما يقتضيه الإيمان. فهم إذا مع المسلمين في أحكام الدنيا لإقرارهم بالتوحيد وهم مع المشركين في أحكام الآخرة لعدم وفائهم بإيمانهم ولمخالفتهم ما يستلزمه التوحيد من عمل أو ترك⁵⁹.

للدار وحكمها عند محدثي الإباضية صور متعددة، ولكن محدثيهم يتفقون مع القدامى في أن دار مخالفهم من أهل الإسلام هي دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي.

يعتقدون بأن مخالفهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناحتهم جائزة وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والخيل وكل ما فيه من قوة الحرب حلال وما سواه حرام.

قولهم في مرتكب الكبيرة إنه كافر كفر نعمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَخُكْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة، 44). وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران، 97). فكل من لم يحكم بما أنزل الله وهو مستطيع فهو كافر، وكل تارك للحج وهو مستطيع فهو كافر بنعمة الله التي أنعم عليه من الاستطاعة⁶⁰.

كما أن مرتكب الكبيرة كافر لا يمكن في حال معصيته وإصراره عليها أن يدخل الجنة إذا لم يتب منها، فإن الله لا يغفر الكبائر لمرتكبيها إلا إذا تابوا منها قبل الموت. فالذي يرتكب كبيرة من الكبائر يطلقون عليه لفظة (كافر) زاعمين بأن هذا كفر نعمة أو كفر نفاق لا كفر ملة، بينما يطلق عليه أهل السنة والجماعة كلمة العصيان أو الفسوق، ومن مات على ذلك، في اعتقاد أهل السنة، فهو في مشيئة الله، إن شاء غفر له بكرمه وإن شاء عذبه بعدله حتى يطهر من عصيانه ثم ينتقل إلى الجنة. غير أن جماعة الإباضية فيقولون بأن العاصي مخلد في النار، وهي بذلك تنفق مع بقية الخوارج والمعتزلة في تخليد العصاة في جهنم⁶¹.

خلود الفاسق الذي مات غير تائب في النار، ووافقهم على هذه المقولة السعد من المالكية، وقيل: إنه من الشافعية، ونص كلامه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء، 48). وهنا ينكرون الشفاعة لعصاة الموحدين؛ لأن العصاة - عندهم - مخلدون في النار فلا شفاعة لهم حتى يخرجوا من النار فشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لا تكون من مات مصرًا غير تائب، إنما الشفاعة لمن مات على صغيرة، أو مات وقد نسي ذنبا أن يتوب منه، أو لزيادة درجة في الجنة، أو لتخفيف الموقف على المؤمنين وإراحتهم منه إلى الجنة، بقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر، 18). وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء، 28). وقوله عليه الصلاة والسلام لعشرته: { إنني لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس، يا صفية، ويا فاطمة. (الحديث): " لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم }.

1- ينفون شروط القرشية في الإمام إذ إن كل مسلم صالح لها، إذا ما توقرت فيه الشروط، والإمام الذي ينحرف ينبغي خلعه وتوليئه غيره، وعدم لزوم الإمامة في قرين مقولة الأنصار وعمر بن الخطاب وأبي ذر الغفاري من الصحابة، واختاره العلامة الموريتاني الشنقيطي صاحب أضواء البيان وغيره من العلماء⁶².

2- من مقولات الإباضية تهجم بعضهم على الخليفة الراشد عثمان بن عفان وعلى معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص رضي الله عنهم، فهم يرون في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنهم كغيرهم في الأعمال لا في درجات الصحبة والمنزلة الأخروية. فالعاصي منهم كغيره من بعدهم كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ (الحجرات، 2)

3- وقوله تعالى عند ذكر بيعة الراضون: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فِيمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (الفتح، 10) وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم الزاني منهم وجلد الشارب وقطع يد السارق منهم وهجر عاصيهم، وقوله: { لو سرقت فاطمة ابنتي لقطعت يدها } ووافقهم على هذه فرقة المعتزلة وهو رأي الصحابة أنفسهم في بعضهم وهم أسوة⁶³.

4- من مقولات الإباضية الإمامة بالوصية باطلة في مذاهبهم، ولا يكون اختيار الإمام إلا عن طريق البيعة، كما يجوز تعدد الأئمة في أكثر من مكان.

5- لا يوجبون الخروج عن الإمام الجائر ولا يمنعونه، إنما يجيزونه، فإذا كانت الظروف مواتية والمضار فيه قليلة، فإن هذا الجواز يميل إلى الوجوب وإذا كانت الظروف غير مواتية والمضار المتوقعة كثيرة والنتائج غير مؤكدة فإن هذا الجواز يميل إلى المنع. ومع كل هذا فإن الخروج لا يمنع في أي حال، والشراء (أي الكتمان) مرغوب فيه على جميع الأحوال ما دام الحاكم ظالماً⁶⁴.

6- تعتقد الإباضية بالقضاء والقدر أنه مقدر من الله تعالى، وأن الخير والشر خلق من الله وكسب من العباد، وها هنا يوافقون أهل السنة والجماعة في هذا، والاستدلال والحجاج قوله تعالى:

﴿أَلَا لَهَ الْخُلُقِ وَالْأَمْرِ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف، 54).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفات، 96).

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء، 23).

7- أنهم ييطلون الصلاة بالقتول فيها، ومنه قول (أمين) مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة، 238). وقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: { صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الأدميين }⁶⁵.

8- أنهم لا يقولون بالمسح على الخفين، وأن الصلاة لا تجوز به والمنع مأخوذ من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة، 6).

9- من مقولات الإباضية في الآداب والأخلاق والمعاملات تحريم حلق اللحية، وقد أجمع على توقيرها الصحابة وقد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حلقها، وقال: { جزوا الشوارب وأعفوا اللحى وخالفوا الجوس، وفي رواية خالفوا أهل الكتاب... }. لأنه فيه تشبيه بالنساء، وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن التشبه بهن، وفيه: أن توقيرها من الخصال العربية التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحافظة عليها بقوله: { إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق }. واللحية عربية والحلق أعجمي. والله در الإباضية في هذا التوجه الأخلاقي الذي ينم عن الوازع الديني والكمال الخلقي وروح الإنتماء والأصالة⁶⁶.

10- من أبرز أجدديات التأويل الإباضي لآيات الله الشرعية والكونية التي يبرهن عليها التاريخ وينصفها الواقع المعيش تحريمهم تعاطي السحائر (الدخان) تحججاً من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ... ﴿الأعراف، 157﴾.

وقد ثبت بالتجربة العلمية القطعية أن الدخان من الخبائث ويؤيد هذا آخر ما توصل إليه العلم الحديث أن (الدخان مضر بالصحة، وبات يهدد الإنسانية عن بكرة أبيها لذا قللت الدول المنتجة من شأنه وباتت تفرض العقوبات والضرائب الجزافية على متعاطيه وتحرمه في الأماكن العمومية كيفما اتفق) وقد قال المبعوث رحمةً للعالمين بتحريم الخبائث، وقد اتفق الأطباء على ضرره وتجنب المضرة واجب شرعاً وعقلاً، كما فيه إضاعة للمال، وقد نعى الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال بقوله: {لا تزولا قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث، منها وعن ماله من أين اكتسبه و فيم أنفقه}. وقول الباري سبحانه: ﴿وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا. إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (سورة الإسراء، 26-27).

11- للإباضية نظام اسمه (حلقة العزابة) وهي هيئة محدودة العدد تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاًحاً، تقوم بالإشراف الكامل على شؤون المجتمع الإباضي: الدينية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما تمثل مجلس الشورى في زمن الظهور الدفاع، أما في زمن الشراء والكنمان فإنها تقوم بعمل الإمام وتمثله في مهامه.

كما لديهم منظمة اسمها (إيروان) تمثل المجلس الاستشاري المساعد للعزابة وهي القوة الثانية في البلد بعدها⁶⁷. و" إيروان " جمع " إيرو " وهو لفظ أمازيغي، يعني طالب العلم الذي حفظ القرآن الكريم وتفرغ للدراسة غالباً. ويتشكل من مجموع هؤلاء الطلبة هيئة إيروان؛ وهي القوة المساندة للعزابة، لها نظم وتقاليد، وكثيراً ما يُسند لهم العزابة أعمالاً، كما يختارون منهم الأعضاء الجدد في الحلقة.

وقد أسس هذا النظام الشيخ عمي سعيد بن علي الجري (ت 927 هـ) حين قدم مزاب في منتصف القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد، إحياء للعلم. لإيروان مقر خاص بهم في المسجد، فيه يجتمعون ويتداولون مهامهم ومسؤولياتهم، يسمى " تدارت نيزوان " أي "دار إيروان"⁶⁸ وهي إحدى أقدم المؤسسات الدينية في العالم أجمع، حيث تواصل عملها وعطاءها طيلة ثمانية قرون متواصلة دون انقطاع، وقد أدرك المؤسسون الأوائل من مشايخ المذهب الإباضي في

وادي ميزاب أن المجتمع الإباضي مجتمع مسجدي يعيش على هدى الكتاب والسنة النبوية... وهي حلقة دعوية تربوية تعليمية...⁶⁹.

وفي الختام نؤيد ما ذهب إليه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله عليه عندما قال: "وها هنا يجب التأكيد أننا نحترم أئمة الفقه الكبار احترامًا عميقًا، واحترام المدارس التي نشأت حولهم أو نشأت مستقلة عنهم ما دامت تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم"⁷⁰. قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْعَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (يوسف، 81).

الخاتمة:

استهدف هذا البحث القيام بمحاولة قراءة الأنماط الفكرية والدينية ذات النزوع الكلامي للمذهب الإباضي، وقد انطلق من ضرورة ممارسة نقدية تحليلية لظاهرة الفرق والمذاهب الكلامية التي تُسَمَّى بماء واحد وتتكئ في الاستدلال على أحكام الدين الإسلامي - عقيدة وشريعة - على خطاب واحد متعدد Unidimensionnel القرآن الكريم والحديث الشريف كأبرز المرجعيات في التأويل. لقد تمت معالجة موضوعات المذهب الإباضي بطريقة التزمت المنهج العلمي القائم على الموازنة والمقارنة والربط الموضوعاتي والتاريخي بين الفروع والأصول، كما نوقشت عقائد الإباضية مناقشة علمية حرّة، مما دفع بألية البحث ممارسة تعتمد الإحصاء وتوظيف المحمول التراثي بالقدر الذي يتيح للملاحظات التخلص من الانطباعية، ويعين من خلال استقراء الدلالات الكلامية والفلسفية على إيضاح نتائج ربما اختفت وراء الحكم الذاتي المعتمد على الحدس... والنظر إلى المسائل المختلفة على أمتها وجهات نظر اجتهادية بحتة. والتي تحمل القبول والرد والرغبة عن اصطناع المحاباة والابتعاد عن أسباب العصبية.

وبعد، فإن المذهب الإباضي مذهب مفتوح على غيره، ولم يفقد الثقة بذاته يوماً، الأمر الذي جعله شاهداً على العصر محفوراً في الذاكرة والوجدان العربي والإسلامي - اليوم - فلم يعرف العصبية والجمود والانغلاق على الذات، وتلك علة خلوده وحضوره في معركة المفاهيم. ومن أدلّ النتائج التي توصل إليها البحث وأحاطت بها هذه الدراسة حول المذهب الإباضي والحفر في مكوناته النصية ومحمولاته الإستيمية من وحي التأويل بين التزام النص وحجية إعمال الرأي ما يأتي:

- 1- إخراج بحث جامعي لإبراز دور المذاهب والفرق الدينية في إثراء المنظومة التشريعية والعقدية للإسلام في ضوء الدراسات الكلامية والفلسفية.
- 2- تناول البحث بعض المقولات الإباضية في تتبع دقيق واستقصاء كامل في إطار المرجعيات النصية والمعرفية المحيطة بها.
- 3- سدّ فراغ علمي بالمكتبة الجامعية ودعوة الباحثين والعارفين لحقيقة المذاهب الكلامية في العالم الإسلامي - اليوم - لتناول ظاهرة المذهب الإباضي بوصفه نقطة تمرکز لعالمية الإسلام وتحديات العولمة.
- 4- صراع المذاهب الفكرية وفضيلة التقارب بينها أفرز أفتانين الجدل في مختلف شؤون الحياة ومناهجها الدينية والعقلية والسياسية في عصر يكاد يفقد الأمة الإسلامية التمسك بهويتها، وبذا يصبح تعدد المذاهب والفرق والجماعات في الدفاع عن العقيدة والموروث الحضاري للإسلام ضرورة حتمية.
- 5- اعتبار النص الديني المقدس سلطة عقدية وتشريعية مطلّقة وأزلية وإبداع إلهي متجدد لا تقتّده مبادئ مطلّقة، ومن ثمّ فإنّ القواعد التي تحكمه ليست بالضرورة خاضعة لمنطق الثبات والاستقرار.
- 6- اعتبار المذهب الإباضي امتدادًا تاريخيًا حيًا للفكر الإسلامي الذي نما وترعرع في تربة الجدل الكلامي في الاستدلال على العقيدة منذ العصور الذهبية الأولى للإسلام.
- 7- الإباضية هي الفرقة الكلامية التي تنصدر قافلة المذاهب والفرق حاليًا في النظرية والممارسة ويؤيد هذه الطلائعية قوة انتشارها في العالم الإسلامي وقوة خطاها الديني والفكري المعتدل.
- 8- لقد تأوّلت الإباضية كثيرًا من آيات الخطاب القرآني على غير تأويلها، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاهًا عقليًا يركّز على الحدس من أجل خدمة مبادئها التي تدين بها.
- 9- عقائد الإباضية أقرب لتوجهات أهل السنة والجماعة كونها توائم بين سلطة النقل وتجليات الأنساق المعرفية المستنبطة من أصول الاجتهاد بالرأي.
- 10- تتقاطع الأصول الفكرية للإباضية مع الأصول الخمسة للمعتزلة رغم الفرق في السياق والمنهج.
- 11- لقد تبني المذهب الإباضي المقاربات النصية المقدسة منهجًا وروحًا ولم يعزل العقيدة عن المعركة ولا الشريعة عن دنيا الناس.

12- اعتبار الإباضية الترجمة العملية لقواعد السلوك الفردي والجماعي القويم في الإسلام وتنمية روح الانتماء والتعاقد والتآلف والأصالة، وعلّة ذلك هيئتها ومنظمتها التي تمثل خيرة أهل البلد علمًا وصلحاءًا (حلقة العزابة ونيروان) انموذجًا.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- منهج الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة : محمد بومعيزة رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العقيدة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2001 - 2002 ص : ب.
- 2- المرجع نفسه، ص ت.
- 3- المرجع نفسه، ص ت.
- 4- المرجع نفسه، ص ج.
- 5- لسان العرب : ابن منظور مادة (كلم)، مؤسسة دار الرسالة، بيروت لبنان، ط4، 1996.
- 6- الصاحبي : أحمد بن فارس، تحقيق أحمد السيد صقر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، د.ت، ص81. وينظر، سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، ط2، 1994، ص 26. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد محمد جاد المولى وآخرين، طبعة دار الجبل، بيروت، ج1، د.ت، ص 184.
- 7- كتاب الصناعتين (الكتاب والشعر) : أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، د.ت، ص 69.
- 8- في البلاغة العربية : علم المعاني، البيان، البديع : عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، دت 39
- 9- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني، تحقيق أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط2، 1987، ص 103
- 10- منهج الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة : محمد بومعيزة، ص 50.
- 11- المرجع نفسه، ص 51.
- 12- المنقذ من الضلال : أبو حامد الغزالي، طبعة مكتب النشر العربي، 1934، ص 79.
- 13- المواقف في علم الكلام وشرحه للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني : عضد الدين الأبيجي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 1997، ص 34 / 1.
- 14- كشاف اصطلاحات الفنون : محمد بن علي التهانوي (مادة علم الكلام) كلكتا، د.ت، ص 1/30.
- 15- المقدمة : عبد الرحمن بن خلدون، طبعة بيروت، 1956، ص 826.
- 16- كتاب التعريفات : الشريف علي بن محمد الجرجاني، باب الكاف، القاهرة، ص 124.
- 17- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية : عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1997، ص 135.
- 18- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية : مصطفى عبد الرزاق، القاهرة، ط2، ص 264.
- 19- كتاب الفقه الأكبر : الإمام أبو حنيفة، طبعة حيدر آباد، الركن، ص 6.

- 20- شرح العقائد النسفية : سعد الدين التفتازاني (ت 791 هـ)، مطبعة محمد علي وأولاده، ط2، 1358، ص 39
- 21- الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي : أبو الفتح الشهرستاني، مصر، 1929، ص 1 / 32-33.
- وينظر التفتازاني المصدر نفسه، ص 48 وينظر رسالة التوحيد محمد عبده، نشرة محمد محي الدين عبد الحميد، 1966، ص8.
- 22- صون المنطق والكلام عن في المنطق والكلام : جلال الدين السيوطي، تحقيق علي سامي النشار، القاهرة، 1947، ص 23.
- 23- مختصر جامع بيان العلم وفضله : ابن عبد البر (ت 463 هـ) - باب ما يكره فيه المناظرة -، القاهرة، ط1، 1320، ص 153.
- 24- رسالة التوحيد - باب التناهي عن الجدل - : ابن بابويه القمي، طهران، 1375، ص 197.
- 25- حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه.
- 26- موسوعة الفلسفة والفلاسفة ط- ي : عبد المنعم الحفني، الجزء الثاني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2010، ص 1349-1350.
- 27- معجم المصطلحات الإباضية أ- ش : تأليف مجموعة من الباحثين، الجزء الأول، مطابع النهضة، سلطنة عمان، 2008، ص ط - ي.
- 28- معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول أ- ش، ص 2-3.
- 29- معجم مصطلحات الإباضية، ص 3. وينظر موسوعة الفلسفة والفلاسفة لعبد المنعم الحفني، أ - ض، ج 1، مكتبة مدبولي القاهرة، ط3، 2010، ص 21. وينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات : اللواء حسن صادق / مكتبة مدبولي، ط1، 2004، القاهرة، ص 197. وينظر موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات لمحمد عبد الحليم عبد الفتاح، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت ص 149.
- 30- معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول أ- ش، ص 4 (بتصرف).
- 31- المرجع نفسه، ص 4.
- 32- المرجع نفسه، ص 4 - 5.
- 33- المرجع نفسه، ص 6 (بتصرف).
- 34- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 149.
- *- تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلاني (ت 974 هـ)، حيدر آباد، د.ت، ص 38 / 2.
- 35- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 149 (بتصرف).
- 36- معجم مصطلحات الإباضية، ص 6.
- 37- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 150 (بتصرف).
- 38- المرجع نفسه، ص 150.
- 39- معجم مصطلحات الإباضية، ص 6 (بتصرف).
- 40- معجم مصطلحات الإباضية، ص 6. وينظر كذلك أهم المصادر التي صاغت هذه المدونة وشبكته المعلوماتية بين ص 6 و 7 لأهميتها.

- 41- بنية الإيقاع في الخطاب القرآني - مقارنة أسلوبية - : عبد الرحيم عزاب، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية والدراسات القرآنية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2010/2009، ص 150.
- 42- مجموع الفتاوى الكبرى : شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، كتاب أصول الفقه، منشورات محمد علي بيضون، ط1، 2000، بيروت لبنان، ص 11/ 185.
- 43- سلسلة الحق المر : محمد الغزالي، شركة تحضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 2008، ص 1 / 3.
- 44- سلسلة الحق المر : محمد الغزالي، ط1، 2005، ص 2 / 115 (بتصرف).
- 45- سلسلة الحق المر لمحمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط5، 2005، ص 142.
- 46- بحوث في علوم التفسير والفقه والدعوة : محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 2005، ص 182.
- 47- ينظر الملل والنحل للشهرستاني، ص 1 / 134، 135. والفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية : أبو منصور البغدادي، القاهرة 1910، ص 61. والتبصير في الدين : أبو المظفر الإسفرائيني، تحقيق عزت عطار الحسيني، دمشق، 1940، ص 56. ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد، ص 100.
- 48- جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات : اللواء حسن صادق، ص 197.
- 49- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات : محمد عبد الحليم عبد الفتاح، ص 155 (بتصرف).
- 50- بحوث في علوم التفسير والفقه والدعوة : محمد حسين الذهبي، ص 171.
- 51- رواه الترميذي في سننه.
- 52- مجموع الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، 227 / 11.
- 53- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز (136) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز (949) عن أنس.
- 54- سلسلة الحق المر : محمد الغزالي، تحضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 2008، ص 3 / 19.
- 55- مجموع الفتاوى الكبرى : تقي الدين بن تيمية، ص 11 / 187.
- 56- ينظر تحافت الفلاسفة لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، نشره الأب بويج، بيروت، 1927. والملل والنحل للشهرستاني، مصر، 1929. ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد (فصل التشبه والتأويل). وموسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات لمحمد عبد الحليم عبد الفتاح، ص 150.
- 57- ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات : اللواء حسن صادق، ص 198 (بتصرف).
- 58- مقالات الإسلاميين للأشعري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط2، 1969، ص 1 / 203.
- 59- موسوعة الأديان : محمود عبد الحليم عبد الفتاح، ص 151. وينظر مقالات الإسلاميين للأشعري، ص 215.
- 60- ينظر أعمال كتب الصحاح " كتاب الحج ".
- 61- ينظر إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للحويني إمام الحرمين وكذا دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد، فصل (الخوارج).
- 62- ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات : اللواء حسن صادق، ص 198- 199.
- 63- المرجع نفسه، ص 199 (بتصرف).
- 64- موسوعة الأديان، ص 152-153.
- 65- ينظر كتاب الصحاح في الحديث النبوي الشريف، كتاب الصلاة.

- 66- ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات ص 199، 200، 201 (بتصرف)
- 67- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 153.
- 68- معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول، أ - ش، ص 86.
- 69- مقال منشور بجريدة الخبر تحت عنوان : " حلقة العزّابة... مؤسسة دينية عمرها 8 قرون " تأليف الأستاذ بابا وموسى بلقاسم، عدد 6095، المؤرخ 22 أوت 2010، ص 22.
- 70- سلسلة الحق المر لمحمد الغزالي رحمه الله تعالى، الجزء الثالث، ط 5، 2008، ص 226.